روحانية الفرض الالهي

بقلم الاب بولس الياس اليسوعي

لقد اصاب القديس بنديكتوس بتسمية صلاة الفرض الالهي عمل الله Opus Dei لا لانها اسمى تعبير ديني وأقدس صلة تشد الانسان الى الله فحسب بل لانها من صنع الله اكثر منها من الانسان. اجل ان سعادة البشر القصوى تمجيد الله وعلى الله ان يدلهم على الطريقة المثلى لتمجيده فبادر وأوحى الاناشيد والمزامير للاباء والانبياء، واضعاً في متناولهم وبالاخرى في افواههم اللغة التي يجب ان يخاطبوه بها ويسبحوه. ولم يقف عند ذلك الحد، بل ارسل ابنه الوحيد كلمته الازلي، وبالتالي «نشيده الازلي» الذي كان يترنم ويتمجد به قبل الدهور» كما يقول الآباتي كولومبا مارميون[1]. فصار بشراً. هيكلاً حياً، ملتقى الالوهية والبشرية، حيث كلم الله الانسان وجهاً لوجه وباح له بسره الدفين، وحيث رفع الانسان لله اجل واسمى عاطفة شكر وترنيمة مجد في تاريخ وجوده. وقد أكد السيد المسيح قبيل صلبه في صلاته الكهنوتية بان الغاية الاولى من تجسده، انما كانت لتمجيد ابيه يشهد لنفسه بانه قام بها على اكمل وجه ولذا قال: «انا قد مجدتك على الارض واتممت العمل الذي اعطيتني لاعمله... (يوحنا ١٧/٤). وبوصفه كاهن الخليقة المتجددة قدم لله تسبحة الخلائق الجامدة والحية، هذا ما يجعلنا نتفهم سر خلواته في القفر واحيائه الليالي على قمم الجبال في الصلاة الى الله ابيه (مرقس ١/٣٥ — لوقا ٦/١٢) وكان لا شك يدعو الخلائق بأسرها لتنضم اليه في تسبحة ابية مردداً كلام المزامير الموحى للانبياء: «سبحوا الرب من السماوات، سبحوه في الاعالي ... سبحيه ايتها الشمس والقمر... سبحي الرب من الارض ايتها التنانين وجميع الغمار النار والبرد ... الجبال وجميع التلال... الوحوش وجميع البهائم، الدبابات والطيور ذات الاجنحة، ملوك الارض وجميع الشعوب، الرؤساء وجميع قضاة الارض، الاحداث والعذارى، الشيوخ مع الصبيان يسبح هؤلاء اسم الرب فان اسمه عال وجلاله فوق الارض والسماوات. (مزمور ١٤٨).

غير ان المسيح لا ينفصل عن الكنيسة عروسه المقدسة وجسده السري.

(١) Dom Colomba Marmion, *Le Christ idéal du moine*, p. 395.

ونبيها كنوز استحقاقاته وتفتي قلبه وعجبته فتقدمت له صعفها ووضع وقلبها ومحبتها وأعاره شفاعها واستادها فكانت الليتورجيا المسيحية بأكمل مظاهرها. تعلمت منه نوع التسبيح الواجب ان ترفعه لله فكانت جوقتان تتناوبان في حوار لا انقطاع له امامه عز وجل . جوقة الكنيسة الظافرة وجوقة الكنيسة المجاهدة وكل منهما ترفع له آي الحمد واتجد على طريقتها . الاولى على نعمة السعادة الابدية التي نالتها من فضله والثانية على نعمة افتداء وعلى نعمة الرجاء بالخلاص الابدي المعد لها . فتكونت منذئذ صلاة الفرض الالهي . تلك الصلاة الجماعية التي ما انفكت الكنيسة تقدمها لله الآب بلسان ابنه الحبيب المتكلم فيها . وهي تدعو جميع بنيها للالتفاف حولها وللانضمام اليها . اقله بالروح . في تأدية تلك الصلاة. الا انها كلفت البعض من ابنائها الاكليريكيين . كهنة ورهبانيات ورهبان متوحدين ليرفعوا الى الله تلك الصلاة الجماعية نيابةً عنها وباسم الجسد السري بكامله . هذا ما اوضحه البابا بيوس الثاني عشر في منشوره المأثور «وسيط الله Mediator Dei» الذي اصدره سنة ١٩٤٨ بخصوص الليتورجيا : حيث قال : « ان ما ندعوه الفرض الالهي ليس سوى صلاة جسد المسيح السري المرفوعة للعزة الالهية : باسم المسيحيين ولاجلهم : بواسطة الكهنة وبقية خدمة الكنيسة والرهبان المتوحدين المكلفين من قبل الكنيسة للقيام بهذا العمل... ثم استطرد يقول : « ان الكلمة ابن الله الازلي : لما تجسد وصار انساناً جلب معه الى منفاه في ارض البشر : ذاك النشيد الذي كان يرنم منذ الازل في الاخدار السماوية امام الله ابيه وهو يدعو الاسرة البشرية الكبرى لتنضم اليه وترنم معه هذا النشيد ... والمسيح هو نفسه يضرع الى الله ابيه ويبتهل اليه من داخل نفوسنا . انه يصلي لأجلنا بوصفه كاهننا، ويصلي فينا بوصفه رئيسنا ، ونحن نبتهل اليه كونه الهنا . فلنعرفن اصواتنا فيه ولنتصتن الى صوته فينا .

ولما كانت صلاة الفرض الالهي الصلاة الجماعية للكنيسة المجاهدة ، بات من الضروري ان تتسم ايضاً بطابع الندامة والابتهال والاسترحام ؛ ولا غرو فهل يتم مجد الله في الكنيسة دون توبة ابنائها الخطأة ؟ — « انها لمقدسة ، يقول القديس اغسطينوس ولكنها مؤلفة من أناس خطأة ، وهذه هي اعجوبتها الكبرى» — وهذا استخدمت الكنيسة صلاة المزامير وأولتها المكانة الاولى في تلاوة الفرض الالهي، لا لان المزامير كانت صلاة اسرائيل الفردية والجماعية — ومن البديهي ان تنتقل اليها عن طريق الوراثة لكونها اصبحت اسرائيل الجديد — ولكن لان المزامير تؤلف جزءاً من الوحي الالهي، حيث كشف الله لانبيائه عن حال البشرية الخاطئة وعن مخططه الالهي وتدبيره الخلاصي تجاهها ، واطلعهم مسبقاً

على حياة مسيحه المزمع ان يرسله ليخلص البشر ؛ وتعلم على النهج القويم الواجب ان ينتهجوه للحصول على براءة ابناء الله ؛ وعلمهم الصلاة المثالية التي يجب ان يرفعوها اليه عز وجل ؛ طبقاً للحقائق الايمانية التي اوحاها لهم .

اجل يجب ان نميز في الصلاة كما في الايمان — والصلاة تعبير عن الايمان — بين الصدق والحقيقة . فالصدق غير الحقيقة . وقد يكون الانسان صادقاً في نياته واعماله ولكن على خطأ وضلال . فالصدق شعور شخصاني نفساني بينما الحقيقة مجرد موضوعي قائم بذاته خارجاً عن الانسان . هكذا قد يتفق للانسان ان يرفع صلاة بصدق وخلوص نية الى رب لا يكون في الواقع سوى وثن من صنع يده او توارثه عن غيره . اما الصلاة الحقة فهي التي تعبر عن حقيقة الله وعن حقيقة الانسان وعن ارتباطه به عز وجل . ولما كان الايمان هبة مجانية من الله للانسان ، بات ايضاً من البديهي ان تصدر البادرة في تبيان طريقة التعبير عن ذاك الايمان ؛ عن الله نفسه فكانت صلاة المزامير ؛ العبارة الاصولية للتعبير عن الايمان الصحيح. فالروح القدس الذي اوحى العقائد الايمانية للبشر بواسطة انبيائه ووهبهم نعمة الايمان ، اوحى لهم ايضاً صيغة التعبير الذي يجب ان يستخدموها في صلاتهم الى الله . ولا غرو فالذي يحدد الهدف يستنبط الوسيلة . فصلاة المزامير هي صلاة موضوعية ؛ مطابقة للحقائق الايمانية التي تعبر عنها او تشير اليها ؛ وهي موضوعية لانها انسانية ؛ ومسيحانية وكنائسية جماعية وثنائية .

— هي انسانية ؛ لانها تكشف اعماق الطبيعة البشرية كما يراها الله ويقيمها. تظهرها عارية امامه تعالى في حال دنسها وفقرها ؛ فتجعلها تقف وقفة العشار لا وقفة الفريسي ، متقية خطر الرياء والكبرياء والاعتماد على الذات ؛ لتنال نعمة البراءة المجانية الموهوبة للخطأة التائبين . اجل ان إنسان الكتاب المقدس يصلي عن خبرة ، لا يميز بين حياته وصلاته .. فان كان خاطئاً ابدى الى الله ندامته وانسحاقه وطلب اليه ان يتناسى معصيته ، قائلاً له : « ارحمني يا الله بحسب رحمتك وبحسب كثرة رأفتك ، أمحُ معاصي... اليك وحدك خطئت وامام عينيك صنعت الشر » (مزمور ٥٠/٢) .

وان كان مظلوماً صرخ اليه تعالى ليأتي الى نصرته :

« اللهم اسمع صراخي أصغ الى صلاتي. من اقاصي الارض اليك اصرخ
« اذا غشي قلبي فتهديني الى صخرة ارفع مني . لانك كنت معتصماً لي برجاً حصيناً

« في وجه العدو اسكن في خبائك مدى الدهور اعتصم بستر جناحيك (مزمور ٦٠/٥) .

وان كان مريضاً استغاث به ليشفيه من علته : « ايها الرب الهي بك استغثت فشفيتني (مزمور ٣٠/٣) .

وان كان فقيراً او حزيناً او مهموماً . ألقى عليه تعالى همومه واحزانه وطلب اليه ان يفرج كربته : « ارحمني يا رب فاني في ضيق . وقد ذبلت من الكرب عيني ونفسي واحشائي » (مزمور ٣٠/١٠) .

وان كان في حيرة او شك او ظلمة ما . شكا اليه مرارته وترجى السلام والطمأنينة من لدنه تعالى : « اللهم اصغ الى صلاتي ولا تستتر عن تضرعي . اصغ اليّ واستجب لي فاني اتقلب في شكواي متحيراً ... توجع قلبي في داخلي واهوال الموت وقعت عليّ . عراني الخوف والرعدة وغشيني الارتعاش . فقلت : من لي بجناح كالحمامة فأطير واستريح (مزمور ٥٤/٣—٧) . « الى الله تسكن نفسي ومنه خلاصي ... الى الله اسكني يا نفسي فان منه رجائي » (مزمور ٦١/١—٦) .

وان كان في تجربة وصراع مع ميوله ونزواته طلب الى الله يمده بعونه ويعيد الفرح الى نفسه : « يا رب استمع صلاتي ولتبلغ اليك استغاثتي . لا تحجب وجهك عني يوم ضيقي . املْ اليّ أذنك . اسرع الى اجابتي يوم ادعوك (مزمور ١٠١/٢) . « لماذا تكتئبين يا نفسي وتقلقين فيّ . ارتجي الله فاني سأعود اعترف له وهو خلاص وجهي والهي (مزمور ٤٢/٥) .

وان كان في صراع وصراك مع الله نفسه ، تجرأ عليه وقال له بصراحته المألوفة : « انتبه ، ما بالك نائماً ايها السيد ! استيقظ . لا تقص على الدوام . لماذا تحجب وجهك وتنسى بؤسنا وضعفنا ... قم لنصرتنا وافتدنا من اجل رحمتك (مزمور ٤٣/٢٣) .

ـ وهي مسيحانية ، تستقطب المسيح الحقيقة بالذات المزمع ان يتجسد ليفتدي البشر . كشفت مسبقا مراحل حياته وغذّت آمال اسرائيل وأحت رجاءه به طول الاجيال . لقد استشهد بها السيد المسيح نفسه في مساء قيامته حين ظهر لتلاميذه واخذ يشرح لهم ما كتب عنه في النبوءات والمزامير : «وقال لهم هذا هو كلامي الذي كلمتكم به اذ كنت معكم انه ينبغي ان يتم كل ما كتب عني في ناموس موسى والانبياء والمزامير (لوقا ٢٤/٤٤) .

استعار احياناً عبارات المزامير وتشابيهها في مواعظه وطبق على ذاته ما قاله المزمور الثاني والعشرون عن الله راعي اسرائيل الذي يرعى شعبه باهتمام وعناية :

« الرب راعي فلا يعوزني شيء . في مراع خضية يقيلني وبياه الراحة يوردني » . فقال : « انا الراعي الصالح... انا الباب ان دخل بي احد يخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى » (يوحنا ١٠) . عاين انبياء المزامير وفي طليعتهم داود الملك نفسه عن بعد اجيال . المملكة المسيحانية الروحية التي سيؤسسها المسيح ابن داود ففرحوا وابتهجوا وقالوا مرتمين ومهللين : « الرب قد ملك ولبس البهاء . لبس الرب العزة وتمنطق بها ... عرشك ثابت منذ البدء (مزمور ٩٢) .

— « يا جميع الشعوب صفقوا بالأكف : اهتفوا لله بصوت الترنيم : فان الله هو ملك الارض كلها ... ملك الله على الأمم (مزمور ٤٦) .

— « قم ايها الرب الى راحتك انت وتابوت عهدك . ليلبس كهنتك البر وليرنم اصفياؤك : من اجل داود عبدك لا ترد وجه مسيحك . اقسم الرب لداود حقاً ولا يخلف : لاجلسن من ثمرة بطنك على عرشك ان الرب اختار صهيون . احبها مسكناً له . هذه هي راحتي الى الابد ههنا اسكن لاني احببتها ألبس كهنتها الخلاص ، واصفياؤها يرنمون ترنيماً . هناك انبت لداود قرناً . اهيأ لمسيحي سراجاً : ألبس اعداءه خزياً وعليه يزهر تاجه (مزمور ١٣١) والى هذه المملكة المسيحانية ألمح الملاك جبرائيل لما بشر العذراء مريم بالحبل الإلهي وطمأنها عن مصير ابنها النهائي : « سيعطيه الرب الإله عرش داود ابيه وسيملك على آل يعقوب ولا يكون لملكه انقضاء (لوقا ١/٣٢) .

اما القديس بولس فقد طبّق على يسوع المسيح في مستهل رسالته الى العبرانيين ، كل ما كتب عنه انبياء المزامير قال : « ان الله الذي كلم الآباء قديماً في الانبياء كلاماً متفرق الاجزاء ، مختلف الانواع ، كلمنا اخيراً في هذه الايام في الابن الذي جعله وارثاً لكل الاشياء وبه انشأ الدهور . وهو ضياء مجده وصورة جوهره وضابط الجميع بكلمة قوته . وبعدما طهر الخطايا جلس عن يمين الجلال في الاعالي ، وقد صار اعظم من الملائكة بمقدار ما يفضلهم الاسم الذي ورثه لانه لمن من الملائكة قال قط « انت ابني وانا اليوم ولدتك . وايضاً انا اكون له اباً وهو يكون لي ابناً وحين يدخل البكر الى المسكونة ثانية يقول وتسجد له جميع ملائكة الله ... واما الابن فيقول له ان عرشك يا الله الى دهر الدهور وصولجان ملكك صولجان استقامة . احببت البر وابغضت الاثم فلذلك مسحك إلهك يا الله بدهن البهجة افضل من شركائك . وايضاً انت ايها الرب اسست الارض في البدء والسماوات هي صنع يديك . هي تزول وانت تبقى وكلها تبلى كالثوب وتطويها كالرداء فتتغير وانت انت وسنوك لن تفنى ولن من

الملائكة قال قط اجلس عن يميني حتى اجعل اعداءك موطئاً لقدميك (عبرانيين ١) .

وهكذا كانت صلاة المزامير مقدمة لصلاة التربية « صلاة الابانا » التي سيلقنها يسوع المسيح لبشر ويعلمهم ان يطلبوا حلول ملكوت الله في قلوب البشر « ليأت ملكوتك » والمزامير — ومنها ١٣٠ مزموراً من اصل ١٥٠ . تشجب الظلم وتحسبه عرقلة في سبيل حلول ملكوت المسيح القائم على العدالة والمحبة والسلام كما وصفه اشعيا : « لان الرب مسحني لأبشر المساكين وارسلني لأجبر المنكسري القلوب وانادي بعتق للمسبيين وبتخلية للمأسورين (اشعيا ٦١/١) .

وهي مسيحانية لانها وصفت الخيراً عذابه وآلامه مسبقاً : « ثقبوا يدي ورجلي... يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون » يقول المزمور الحادي والعشرون . وقد ردد يسوع المسيح نفسه الفقرة الاولى من هذا المزمور في تراعه على الصليب: « إلهي إلهي لماذا تركتني » .

— وصلاة المزامير هي ايضاً صلاة جماعية — كنائسية . ذلك لان انسان التوراة لا يفكر ولا يصلي الاّ بوصفه عضواً من جسم : فرداً من شعب : جزءاً من أمّة .. ففي حالاته الخاصة وابتهالاته الفردية الى الله : هو اسرائيل بكامله يصرخ معه الى الرب في الشدة ويذكره بمواعيد وعهده الذي قطعه مع ابراهيم واسحق ويعقوب ويتشكى من نسيانه له . وهو ايضاً اسرائيل بكامله يشكر يهوه بلسان انسان التوراة على مناصرته اياه ضد اعدائه والمزمور ٢٧ نموذج من ذلك: « اليك يا رب اصرخ. يا صخرتي لا تتصام عني لئلا تصمت عني فأشابه اهابطين في الجب . اسمع صوت تضرعي عند استغاثتي بك ورفع يدي نحو محراب قدسك . لا تخطفني مع المنافقين وفاعلي الإثم الذين يكلمون قريبهم بالسلام وفي قلوبهم الشر... تبارك الرب فانه سمع صوت تضرعي . الرب عزتي ومجني وعليه اتكل قلبي فنصرت. وابتهج قلبي وبنشيدي اعترف له . الرب عزة شعبه وحصن خلاص لمسيحه. خلص شعبك وبارك ميراثك وأرعهم وأرفعهم الى الابد.

ثم ان انبياء المزامير تفننوا بصهيون موضع الالتقاء بشعب الله ، والكنيسة هي صهيون الجديدة ملتقى الخلاص لجميع الشعوب والأمم .

— واخيراً المزامير صلاة غنائية لانها كانت كتاب تراتيم وتراتيل الهيكل والمجمع ربما تكون كتاب تراتيم البيعة . نظم بعضها قبل الجلاء الى بابل وبعضها في زمن الجلاء والآخر بعده . مذ صار اسرائيل شعباً وأمة كانت له طقوس عبادة جماعية ، ليتورجيا ، تقام على ايقاع الغناء بالبوق والعود والكنارة ، بالدف

والرقص، بالجنوك والصنوج بالاوتار والمزمار، كما جاء على ذكر ذلك في سفر الملوك الثاني (٢ ملوك ٦/٥—٧) وفي نبوءة عاموس (٥/٢٣) وفي المزمور ١٥٠).

وليس ذلك من الغرابة بشيء لان الشعر والموسيقى هما اكثر غنى من الكلمة النثرية وأجدى وسيلة للتعبير عن الشعور الديني الجماعي. فالانبياء الذين كانوا يمثلون بحكم الدعوة مصالح الله ومصالح الشعب كانوا شعراء بالسليقة — وكل نبي شاعر — ولذا استخدموا الموسيقى للتعبير عن شعور الشعب الجماعي الديني. فكان منهم النبي والشاعر والموسيقار بآن واحد وفي طليعتهم داود الملك، الذي اغنى الليتورجيا بمزاميره الخالدة، وخلق لها أثمن وأروع تراث روحي عرفته في تاريخ عصورها. والليتورجيا المسيحية من قداس وصلاة فرض وزياحات وعبادات ليست سوى صلاة ونشيد اكليركيين روحانيين جاؤوا على اثر انبياء المزامير وراحوا ينقرون باصابعهم السحرية على اوتار قيثارتهم ويسيلون زبدة قرائحهم في التغني والانشاد بجمال بيت الرب، يحيون تباعاً وبلا انقطاع ذكرى اسرار حياة ابن الله المتجسد من فرح وحزن ومجد، وما انفكوا منذ الفي سنة يستودعون الليتورجيا اروع ما اوتوه من فن واخراج وابداع في هذا المضمار. فقيثارتهم رنت بميلاد ابن الله وناحت وبكت على صلبه وجللت وعزفت وصدحت في قيامته. فعلى قيثارتهم قامت الليتورجيا وعلى غير قيثارتهم لن تقوم.

اما شعور الانتقام والصراع الذي تجده في المزامير كما في المزمور الرابع والثلاثين والثاني والاربعين مثلاً: «خاصم يا رب من يخاصمني وقاتل من يقاتلني. خذ مجناً ومجناً وانهض الى نصرتي (مزمور ٣٤).

— «اللهم احكم لي وخاصم لدعواي مع أمة غير صفية ونجني من صاحب الكيد والأثم ... ارسل نورك وحقك فهما يهدياني» (مزمور ٤٢).

فيجب ان يفهم على صعيد آخر غير صعيد الانتقام كما اوضح ذلك الآباني بيوس بارخ والاب جالينو اليسوعي[1]. فالعدو هنا ابليس والانسان العتيق انسان الخطيئة الكامن في كل امرئ مع ميوله ونزواته المنحرفة. لان الانسان كثيراً ما يكون عدواً لنفسه وبحق قال السيد المسيح اعداء الرجل اهل بيته. والحب الحقيقي لن يعظم الا بانتصاره على البغض».

تخاطب الكنيسة الله بالمزامير فيجيبها بلسان انبيائه او بلسان ابنه يسوع المسيح بالاسفار المقدسة الملائمة ولهذا كان للقراءات المنتخبة من الكتاب المقدس

(١) *Les études*, n° 25, p. 173-174.

دور هام ايضاً الى جانب المزامير في تلاوة صلاة الفرض الالهي . ثم ان الافادة الروحية من صلاة الفرض الالهي لا تشمل الجسد السري اجمالاً فحسب بل تتناول ايضاً الانسان الفرد . فتشعش تقواه الفردية الخاصة اذ انها تثري وتنمي فيه الفضائل الالهية الثلاث . الايمان والرجاء والمحبة . وتأتيه تمت بالسلام والطمأنينة والفرح الداخلي واحياناً بالقداسة نفسها . فتجعله يحيا حياة انس مع الله يتذوق حلاوة وجوده فيه فيهتف مع صاحب المزمور الحادي والاربعين قائلاً : « كما يشتاق الأيل الى مجاري المياه . كذلك تشتاق نفسي اليك يا الله . ظمئت نفسي الى الله الى الإله الحيّ » ومع صاحب المزمور الثاني والسبعين : « من لي في السماء وعلى الارض . لم ابغ معك احداً قد فني جسدي وقلبي . الله هو صخرة قلبي وحظي الى الابد » .

ومع صاحب المزمور الثاني والعشرين : « الرب راعي فلا يعوزني شيء... اني ولو سلكت في وادي ظلال الموت لا اخاف سوءاً لانك معي . عصاك وعكازك هما يعزيانني » .

وقد تكلم احد الآباء الروحيين على ذاك التغير الجذري الذي احدثه في نفسه تلاوة صلاة الفرض الإلهي ولا سيما تلاوة المزامير : بحيث كانت نقطة تحويل وانطلاق في حياته قال : « لقد احببت المزامير لانها تحيل عواطف النفس الى صلاة غنية : تمنح الطمأنينة للنفس الحائرة ؛ والبراءة للنفس التائبة ؛ المزامير تعلم وترشد وتهدي ؛ وكثيراً ما تكون تلاوتها نقطة تحويل وانطلاق في حياة الانسان. هكذا كان المزمور الحادي والثلاثين : « طوبى لمن غفرت معصيته ، وسترت خطيئته ؛ طوبى للرجل الذي لا يحسب الرب عليه إثماً وليس فيه غش... نقطة تحويل وانطلاق في حياتي كلها ، وقادني نحو السماوات واصبح شعاري منذئذ : « اعمالي للملك ! » المأخوذ من المزمور الرابع والاربعين ؛ ولا سيما الآية الحادية عشرة منه : « اسمعي يا بنت وانظري وأميلي اذنك ؛ انسي شعبك وبيت ابيك » .

لقد أكد لنا ترتليانوس الكاتب الافريقي الشهير ان الكنيسة كانت تستخدم المزامير في صلاتها الجماعية في زمانه اي في القرن الثاني ، ذلك لان المزامير هي صوت المسيح وصوت يقود الى المسيح[1] . وقال القديس اغسطينوس في هذا الصدد : « ليس المسيح إله المزامير ولكنه المرنم في المزامير . فهو ذلك الانسان

(١) Tertullien, *Adversus Praxeam*, 11 (C, sel, 47, 244).

المنتشر في كل مكان . رأسه في السماء وقدماه على الارض . وصوته ينشد في كل مزمور ان نائماً وان مُبتلاً في رجاء وحنين وقد اصبح معروفاً . فينبغي ان نستعير ذاك الصوت لنخاطب الله به »[٢] .

المزامير صوت المسيح وصوت يقود الى المسيح . استعملتها الكنيسة في صلاتها الجماعية منذ القرن الثاني . كما شهد ترتليانس على ذلك . وهذا نود ان نسترجع مكانتها الاولى في القرض الالهي في الليتورجيا المارونية . لانه من المؤسف ان نستبدل بكلام البشر كلام الله ، مهما كان وقعه رخيماً على الآذان : ذلك لان نفاذ الكلام البشري محدود في حين ان نفاذ الكلمة الالهية لا حد له . وقال اللاهوتي الكبير المعاصر ديفو برسوتي[٣] في هذا الصدد : « ان نفاذ الصلاة المسيحية يتبع اتساع الكلمة الخلاقة . وكلما اتسعت الكلمة تمت الخلقة واكتمل فداء العالم . انها تتابع كلام المسيح امام قبر لعازر : « يا ابتاه اني اشكرك لانك سمعت لي وقد علمت انك تسمع لي في كل حين » (يوحنا ١١/٤١) .

فالقرض الالهي هو اذن كلام الله الحيّ الذي يتابع عمل الخلقة والفداء في العالم ويغذي النفوس ويهبها الحياة . وهذا تجب تلاوته بدقة واتقان وفي الاوقات المعينة لان فيه غذاء البشرية التي تطلب طعامها الروحي في حينه . فالطوبى لتقبرمان الحكيم الذي يوزع الطعام الالهي على البشرية . لا ككسر من فضلات النهار التي لا تشبع احداً ولا في ساعة متأخرة في الليل عندما يكون التعب قد نال منه ماله واثقله النعاس ورقدت البشرية دون عشاء : بل غذاء كاملاً وفي حينه .

ستبقى المزامير الحجر الاساسي في هيكل القرض الالهي : لا لانها تنطوي على الصلاة المثالية التي يجب ان ترفعها الكنيسة الى الله باسم جميع ابنائها فحسب بل لانها تستنطب المسيح وتكشف اسراره وتجعل البشر يحيون ويموتون على رجائه .

ان تدبير الله الخلاصي نحو البشر لم يتم بكامله . وبين صعود المسيح الى السماء ومجيئه الثاني ستحيا الكنيسة في فترة انتظار ولهذا سوف تبقى فيها روح النبوة ، وسيقيم الله دائماً رجالا اكليريكيين روحانيين ، منقطعين بكاملهم لخدمته تعالى ، يكونون بمثابة انبياء لاسرائيله الجديد ، يقودونه نحو اورشليم السماوية ، ارض الميعاد الحقيقية ، يسجدون باسم اخوانهم لإله ابراهيم واسحق ويعقوب ويسوع المسيح ويرفعون له آي الحمد والشكر عنهم بلا انقطاع ، يحملون عارهم

(١) Augustinus, *Epistola apostolorum*, 19 (Duensing, 18).
(٢) Divo Barsotti, *La Parole de Dieu dans le mystère chrétien*, *Les oeuvres*, n° 7, p. 348.

ويكفرون عن معاصيهم ويكونون علامة خصام في العالم بسببهم ويستوجبون تعالى لأجليهم . وبالتالي يتلون الفرض الالهي على الدوام .

هو الروح القدس . روح الوحدة والمحبة في الثالوث الاقدس الذي عمل وما انفك يعمل كل شيء . قدس العالم بواسطة الكلمة الالهية المرجاة والمعطاة من الله والمردة اليه ؛ حمل الابن على النزول الى ارض البشر وكوّنه بشراً في حشى مريم . وقاده الى الجلجلة لينتدي البشر واقامه من الاموات ورفعه الى السماء .

كان قد سبق وأعد له طريقاً بواسطة الانبياء ؛ ومكث مع كنيسته بعد صعوده الى السماء ولا يزال يصلي من داخلها . تراه في الماء والزيت والخبز يصنع الاسرار ويكوّن البشر لله . ويقوتهم من حياته الالهية . هو في الثالوث الاقدس يشيد الحب المتبادل بين الآب والابن وفي الكنيسة الحوار الدائم والمتبادل : التفاهم بين العريس وعريسها الإلهي ؛ يردد قائلاً وبلا انقطاع : « ابا ! ايها الآب !» (غلاطية ٤/٦) .

بولس الياس اليسوعي

بيروت ــ جامعة القديس يوسف
في ٢٧ نيسان ١٩٦٥